جامعة وادي النيل
مجلة النيل للآداب والعلوم الإنسانية
(ISSN: 3122 – 5985)
المجلد السابع، العدد الأول 2026م
nilevalley.edu.sd

دور الدولة العثمانية في مواجهة التوسع الصليبي في شمال وشرق أفريقيا في القرن السادس عشر الميلادي

حسن عوض الكريم علي أحمد

قسم التاريخ -كلية الآداب – جامعة شندي

المؤلف: Hassanah1964@gamail.com

تاريخ الاستلام : 2026/3/27 **تاريخ القبول : 2026/5/23**

المستخلص:

تناولت هذه الدراسة دور الدولة العثمانية في مواجهة التوسع الصليبي في شمال وشرق أفريقيا في القرن الـ16م. تأتي أهمية هذه الدراسة لأهمية المنطقة بالنسبة للدولة العثمانية ، كما هدفت هذه الدراسة للتعرف على الدور الذي قامت به الدولة العثمانية في مواجهة التوسع الصليبي في شمال وشرق أفريقيا وحماية مسلميها. وتفسير عوامل استنجاد المسلمين في هذه المناطق واستجابة الدولة العثمانية لهم. بجانب توضيح النتائج المترتبة عن هذا الدور. اتبع في هذه الدراسة المنهج التاريخي وذلك بجمع المعلومات الأساسية وتصنيفها وتحليلها . قسمت هذه الدراسة بجانب المقدمة والتمهيد والخاتمة إلى ثلاثة محاور الأول:عن التوسع الصليبي الإسباني في الجزائر وتونس ، والثاني : عن مواجهة فرسان القديس يوحنا في ليبيا بينما كان المحور الثالث عن مواجهة التوسع الصليبي البرتغالي في شرق أفريقيا. أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج هو أن مسلمي شمال وشرق أفريقيا كانوا في حالة من الضعف لا تمكنهم من مواجهة هذا التوسع لذلك استنجدوا بالدولة العثمانية والتي استجابت لهم بهدف حماية المسلمين والمواقع الاستراتيجية ، وبذلك نجحت الدولة العثمانية في إبعاد التوسع الإسباني من شمال أفريقيا وفشلت في إبعاد التوسع البرتغالي في شرق أفريقيا ولكنها حدت من خطورته ومنعت تقدمه شمالاً .

الكلمات المفتاحية: *الدولة العثمانية – التوسع الصليبي- شمال أفريقيا – شرق أفريقيا.*

Abstract: This study addressed the role of the ottoman state in confronting the crusader expansion in North and East Africa in 16 century, the Importance of this study stems from the region's significance to ottoman state.The study also aimed to identify the role played by the ottoman state, protecting its Muslims and explaining the factors of that contributed to their rise in this region, and the ottoman state's response to them, in addition to clarifying the consequences of this role.This study followed the historical method by gathering, classifying and analyzing basic information. This study in addition to the presenter indirection and conclusion is divided into three main sections, the first concerns the Spanish crusader expansion in Algeria and Tunisia, the second concerns the confrontation the knights of S.t John in Libya. The third focus was or the Portuguese crusader expansion in East Africa.The most important finding of this study is that Muslims in North and East Africa, they were too weak to face these expansion therefore they appealed to the ottoman state which responded to them, with aim of protecting Muslims and strategic Locations, thus the ottoman state succeeded in removing the Spanish expansion from North Africa, and failed to eliminate the Portuguese expansion from East Africa but it limited its danger and prevented its north wand advance.

Key words: *Ottoman state- Crusader expansion – North Africa- East Africa*

مقدمة:

تتناول هذه الدراسة دور الدولة العثمانية في مواجهة التوسع الصليبي في شمال وشرق أفريقيا في القرن السادس عشر الميلادي . تأتي أهمية الدراسة في إبراز دور الدولة العثمانية في مناطق المسلمين خارج سيطرتها . كما أن هذا الصراع جاء بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية في 1453م وكان ذلك بمثابة صدمة كبيرة للقوى الأوربية الصليبية والتي لجأت لتعويض خسارتها في المشرق في التوسع في بلاد المسلمين غرباً ، ومنها منطقتي شمال وشرق أفريقيا ، هذا بالإضافة لسيطرة العثمانيين على طرق التجارة الشرقية المؤدية للشرق الأقصى مما أدى لقيام القوى الصليبية ممثلة في إسبانيا والبرتقال بحركة الكشف الجغرافي والتي كانت لها دوافعها السياسية والدينية والاقتصادية ولذلك أصبح الصراع أمراً حتمياً بين الطرفين خاصةً بعد أن أصبح المسلمون ينظرون للدولة العثمانية كقيادة سياسية ودينية لهم.

تهدف هذه الدراسة للتعرف على الدور الذي قامت به الدولة العثمانية في مواجهة التوسع الصليبي في شمال وشرق أفريقيا وكشف دوافع الصراع بين الدولة العثمانية والتوسع الصليبي في المنطقة ، وتفسير عوامل استنجاد المسلمين في هذه المناطق واستجابة الدولة العثمانية لهم ، بالإضافة لتوضيح النتائج المترتبة عن هذا الصراع في المنطقة .

لأغراض هذه الدراسة وردت العبارات والكلمات المفتاحية التالية ونعني بها :

1/ الدولة العثمانية : وهي الدولة التي أسسها الأتراك العثمانيون في 1299م وحكمت معظم العالم الإسلامي ووحدته ، وانتهت في 1923م

2/ التوسع الصليبي : هو النشاط السياسي والديني الذي قام به البرتغاليون والأسبان في المناطق الإسلامية في القرن السادس عشر الميلادي.

3/ شمال أفريقيا : هي المنطقة المطلة على ساحل البحر المتوسط وتضم ليبيا و تونس و الجزائر.

4/ شرق أفريقيا : هي المنطقة المطلة على سواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر والممتدة من مقديشو شمالاً إلى سوفالا جنوباً .

تمهيد:

عندما توحدت إسبانيا بزواج إيزابيلا من فيليب الثاني " دولة راغون و قشتاله " وتمكنت من إخراج آخر الممالك الإسلامية في غرناطة في 1492م(Stanford.j.1978.P:96). وبعد سقوط غرناطة اضطهد الإسبان العرب المسلمون وأجبروهم على الخروج من الدين الإسلامي واعتناق المسيحية قسراً(أبو زيدون، 2003م، ص 118).

لذلك لجأ مسلمو الأندلس إلى شمال أفريقيا بعد تعرضهم لمعاناة محاكم التفتيش في إسبانيا وكانت ردة الفعل هي الانتقام بمهاجمة السفن المسيحية في سواحل أوربا ومارسوا نوع من الحرب البحرية غير النظامية عرفت عند الأوربيين باسم القرصنة وعند المؤرخين العرب باسم الجهاد البحري(العبسى ، 2016م ، ص 91).

كان من آثار التهجير الجماعي لمسلمي الأندلس إلى شمال أفريقيا ظهور حركة الجهاد الإسلامي التي قادها البحارة المسلمين ضد الإسبان و البرتغال وفرسان القديس يوحنا بصورة غير منظمة حتى ظهور الأخوين عروج وخير الدين بربروسا(حسنين،2014م، ص249).

كان وضع شمال أفريقيا في النصف الأول من القرن الـ 16 م قبل تدخل أسرة بربروسا كما يلي :-

1- في المغرب الأقصى حكمه المرينيون من فاس وكان لهم تنافس مع السعديين الأشراف وانشغلوا بالنزاعات الداخلية .
2- بنو عبد الوداد أو زيان وكانوا يحكمون الجزائر من تلمسان وكانوا عاجزين عن الدفاع من الإسبان.
3- في تونس تأسست السلطنة الحفصية في 1228م وهي أيضاً تدهورت وضعفت وحافظة على بقائها بالتعايش مع الإسبان(اوزتونا، 1990م ، ص 240).

هكذا يتضح أن السلطة المحلية في شمال أفريقيا غير قادرة على رد الخطر الصليبي الإسباني وتمثل ذلك في ضعف دويلات المغرب مثل دولة بنيو زيان في الجزائر وبنو حفص في تونس وبنو مرين في مراكش .

أما عن أوضاع المسلمين في شرق أفريقيا فقد تأثرت بعد استيلاء المسيحيين على الأندلس في 1492م وذلك عندما بدأت أوربا المسيحية تدخل في عصر جديد من القوة وتهيأت لهجوم مضاد على العالم الإسلامي عبر البحر للبحث عن مسالك جديدة للتجارة وأدى اكتشاف البرتغال رأس الرجاء الصالح بالدوران حول أفريقيا برحلة فاسكو داجاما في 1497م لبداية عهد جديد في العلاقات بين أوربا والمسيحيين انتهى بسيطرة أوربية على تجارة المحيط الهندي والسواحل الأفريقية والآسيوية(حسن ،(د:ت) ، ص 176) .

عندما وصل البرتغاليون إلى شرق أفريقيا كانت الممالك والمدن والإمارات الإسلامية فيها حالة نزاع ومنافسة مستمرة بسبب الدوافع العرقية والأسرية والمذهبية والدينية والاقتصادية والتجارية فضلاً عن دوافع السيادة والسيطرة على الساحل الشرقي الأمر الذي يسر أمر احتلال البرتغاليين لشرق أفريقيا(الغنيمي،1998م ، ص 177). بدأت سيطرة البرتغاليين على الممالك الإسلامية في ساحل شرق أفريقيا ، وفرضوا عليها السيادة مثل زنجبار في 1505م ثم سو فالا و ممبسا و مالندى و لامو و براوه ، وذلك بدفع الجزية وهكذا تمكن البرتغاليون من السيطرة عليها في أقل من عشر سنوات(حسن ،(د:ت) ، ص 177).

وهكذا خضعت المدن الساحلية للبرتغاليين أما بقبولها السيادة ودفع الجزية وأما بالقضاء عليها . وفي عام 1509م عين ملك البرتغال حاكماً عاماً للمستعمرات البرتغالية في أفريقيا الشرقية وساحل بلاد العرب وأنشأ البرتغاليون ثلاث مستعمرات رئيسية في كلوه

وموزمبيق وسوفالا وأخرى فرعية في زنجبار وبمبا . أما المدن الشمالية شمال كلوه " مقديشو و هرر " فقد احتفظت بحكوماتها ونظمها المحلية مقابل دفع الجزية وتمتعت بحرية التجارة(الغنيمي ، 1998م، ص 178)[1] .

من كل ما ذكر سابقاً اتضح أن الأمارات والدول الحاكمة للمسلمين في شمال أفريقيا وشرقها كانت في حالة ضعف سياسي وانقسام أسري ومذهبي مما ساعد على السيطرة الصليبية الإسبانية والبرتغالية على المنطقة .

أولاً : مواجهة التوسع الصليبي الإسباني في الجزائر وتونس :

في هذا المحور سنتناول دور الدولة العثمانية في مواجهة التوسع الصليبي الإسباني في الجزائر وتونس .

أ/ الجزائر :

أسس المسلمون الفارون من الأندلس مستوطنات في شمال أفريقيا وعملوا على الانتقام من الإسبان بالإغارة عليهم عن طريق مهاجمة السفن وهو ما عرف بالقرصنة . ورداً على ذلك استولى الإسبان على عدد من المناطق(الغنيمي ،1998م ، 178). منها ميناء المرسى الكبير في غرب الجزائر 1505م . ثم استولى الإسبان على بجايه 1508م ثم وهران في 1509م ، وهكذا أقام الإسبان مستعمرة الجزائر بواسطة دون بدور . وعين ماركيز كوال حاكم عام على مستعمرات شمال أفريقيا أما البرتغال فقد شيدت قلعتي مارفان و أزمور على سواحل فاس في الأطلسي(اوزتونا ،1990م ، ص 14).

قاد أبناء بر بروسا الجهاد الإسلامي ضد الإسبان ويرجع أصل بر بروسا إلى أبويين تركيين من جزيرة مدللي لهم خبرة واسعة في صناعة السفن والملاحة والحروب البحرية . كلمة بابروس تعني صاحب اللحية الحمراء وآل بر بروسيا هم أبناء يعقوب أغا الأربعة ، " خير الدين و أروج و اسحق و الياس " اشتغلوا بالتجارة البحرية في البحر المتوسط ولكنهم تعرضوا لمخاطر قراصنة أوربا وكان أسر أخيهم أروج نقطة تحول للعمل بالقرصنة والجهاد(طوباش ،2016م ، ص 389-391). أمتلك أروج إمارة جربا في 1510م بعد أن منحها له الحسن الحفص حاكم تونس مقابل خمس الغنائم بعدها بدأ أروج نشاطه واسترد ميناء بجايه من الإسبان(العبسى ،2016، ص 92-93).

وهكذا دخل آل بربروسا في خدمة السلطان الحفصي حاكم تونس(اوزتونا ،1990م ، ص 239). واستمر في أخذ مراكب المسيحيين التجارية . ثم أرسلوا إلى السلطان سليم الأول إحدى المراكب إظهاراً لخضوعهم لسلطانه فقبلها وأرسل لهم هدية وعشر سفن ليستعينوا بها على غزو مراكب الإفرنج فقويت شوكتهم(أبو زيدون ،2003م ، ص 118) .

وفي وقت ظهور أسرة بار بروسا أجبر الإسبان بنو زيان حكام الجزائر إلى عقد صلح معهم في 1512م اعترفوا فيه بسيادة الإسبان على عدة موانئ في غرب الجزائر(نجم، 2015م ، ص 76). كانت أسرة بربروسا تملك سفن تجارية تعمل بها في جزر بحر ايجه . ثم أخذو يعملون في سواحل شرق البحر المتوسط وكان أروج مقتنعاً بتأسيس دولة في شمال أفريقيا لصد المسيحيين . أراد ذلك أولاً تحقيق ذلك في تونس لكن الحفصين كانوا أسرة متمكنة من حكم البلاد .

أما الجزائر فلم يكن فيها أسرة وكانت أكثر عرضة من غيرها للتسلط المسيحي وخضعت أماكن كثيرة منها للإسبان ، فبدأ أروج ببجايه وحاول محاصرتها في العام 1514م ورفع الحصار عنها إثر إصابته في يده اليسرى . ثم استمر الإخوان بربروس في مناوشة سفن الإسبان إذ تمكن خضر رئيس في 1515م من الاستيلاء على 20 سفينة و3800 أسير . ثم عاد أروج في 1515م وأخذ يقوم بترحيل عشرات الآلاف من الأندلسيين من إسبانيا إلى شمال أفريقيا(اوزتونا ،1990م ، ص 245-246).

في 1516م استدعى حاكم الجزائر الخوين أروج وخير الدين على صد هجوم على ميناء الجزائر ونجحا في ذلك(نجم،2015م،ص 176) .

كما نجحا في تأسيس حكومة عسكرية ساندها الحكام المحليين وهكذا وجدت هذه القوى المحلية التأييد الشعبي والمحلي من الأهالي والذين وجدوا فيهم القوة المنقذة لهم من التسلط الإسباني والبرتغالي(أبوعليه،2014م،ص173-175). وهكذا تمكنت أسرة بربروس من السيطرة على بجايه في 1516م واصبح أسطولهم مكون من 28 قطعة حربية ، لكن الإسبان استردوا بجايه في الحال . ثم دخل أروج مدينة الجزائر في 1517م وأمر بتلاوة اسمه في الخطبة بعد اسم السلطان سليم وهكذا أعلن حكمه بصورة رسمية ، أعلنت إسبانيا الحرب على أروج عندما أعلن نفسه سلطاناً وحاولت حصار الجزائر وفشلت في دخولها(اوزتونا ، 1990م ، ص 247-248).

تقدم أروج إلى تلمسان وسيطر عليها وتحرك الجيش الإسباني نحو تلمسان وتعرضت للحصار " 6 شهر : ولم يصله المدد والمعونة من سلطان فاس ولا من أخيه خضر في الجزائر لبعد المسافة وعلى أثر فك الحصار وبخروج أروج تعقبه الإسبان وقتلوه في أكتوبر 1518م . كان أروج قد أرسل للسلطان سليم . وكان السلطان سليم قد أرسل للجزائر 2000 جندي عثماني و4000 متطوع وعدد من المدافع والبنادق إلا أن هذا المدد وصل بعد استشهاد أروج ولكن استمر سليم مهتماً بالجزائر بعد وفاة عروج(اوزتونا،1990م، ص251-253).

---

[1] عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، مرجع سابق ، ص 178.

خلف خير الدين أخاه أروج وكان عليه أن يواجه بالإضافة للإسبان المؤامرات والثورات التي قامت في شمال أفريقيا(الجمل ،2008م ، ص 95). ولما كان خير الدين ومحاطاً بالأعداء من كل جانب ، بنو زيان في تلمسان والحفصيون في تونس ، هذا بالإضافة للإسبان ولذلك طلب المساعدة من الدولة العثمانية(أبوعليه،2014م، ص 180-181). عمل خيرالدين باسم السلطان العثماني وأرسل إلى السلطان سليم الأول الذي كان حينها في مصر رسولاً يُدعى " كرو أوغلي " يؤكد إخلاصه وولائه للعرش العثماني(أبوزيدون،2003م،ص 117). ثم أرسل سكان مدينة الجزائر رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول بتاريخ 26 أكتوبر 1519م جاء فيها أن خير الدين كان شديد الرغبة في الذهاب لاستانبول لعرض قضية الجزائر على السلطان ولكن زعماء الجزائر طلبوا منه البقاء للدفاع عن المدينة وأرسل وفد ينوب عنه مكون من الفقهاء والقاضي والخطيب والأئمة والتجار والأعيان وأفاضت هذه الرسالة بالولاء العميق للدولة العثمانية وخير الدين بربروسا وكان يرأس هذا الوفد الفقيه أبو العباس أحمد بن قاضي(الشناوي ، د. ت ، ص 184).

حاول الإسبان التخلص من خير الدين وأرسلوا حملة نزلت بالقرب من الجزائر 1519م واستطاع خير الدين أن يوقع بها هزيمة كبيرة ويقتل أمير الجزائر ، وأرسل أحد اتباعه إلى السلطان سليم الأول ليخبره بفتح مدينة الجزائر باسم السلطان العثماني ، كان هذا النصر سبباً في ذيوع صيت خير الدين فانعم عليه السلطان بلقب الباشويه و ولاه إمارة الأسطول العثماني(الجمل، 2008م، ص 96). استجاب السلطان سليم الأول لأهل الجزائر ومنح خير الدين لقب بكلر بك ولذلك دخل الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية في مايو 1519م ودعي للسلطان سليم في الخطبة وضربت العملة باسمه وبذلك أصبح الجزائر أول إقليم في المغرب العربي يدخل تحت السيادة العثمانية(حسنين، 2014م، ص 257). تم رفع الجزائر من لواء إلى إيالة فرفع خير الدين إلى باشا في أغسطس 1519م(اوزتونا،1990م،ص 253-254).

هكذا نجحت البعثة الجزائرية في تحقيق أهدافها ووقف العثمانيون بجانب مسلمي الجزائر لصد الخطر الصليبي الإسباني فتدخل العثمانيون في الجزائر وهو ليس استعماراً باعتراف المؤرخين والجزائريين إنها حماية للبلاد من وقوعها تحت الاستعمار الإسباني(الهندي، د.ت، ص 38). وخلال الفترة من 1519م – 1525م تمكن خير الدين من تحرير الجزائر ووضعها تحت السيادة العثمانية لتصبح قاعدة للانطلاق إلى تونس وطرابلس(حسنين ، 2014م، ص 299). ثم عاد خير الدين بسفن مثقلة بالغنائم للسلطان العثماني في 1544م فاستقبله أحسن استقبال. وكان ختام حياته بوفاته في نفس العام. وعين بدلاً عنه ابنه حسن(الهاشمي ،2017م ، ص 660).

غيرت الدولة العثمانية من سياستها بعد أن صار المغرب حليفاً قوياً للإسبان مما أدى إلى قلب الموازين . فاتخذ السلطان سليمان القانوني عدة تدابير لمواجهة هذا الوضع فعزل حسن بن خير الدين من ولاية الجزائر واسند أمرها إلى صالح ريس في 1552م(حسنين، 2014م، ص 281). بدأ صالح بطرد الإسبان من وهران وهاجم بجايه في 1555م بدعم من الأسطول العثماني حتى استسلم حاكمها الإسباني للعثمانيين وتوفى صالح ريس في 1556م وهو يعد العدة لمهاجمة وهران(الهاشمي، 2017م ، ص 261).

أعاد السلطان العثماني حسن بن خير الدين حاكماً على الجزائر في 1557م إلا أنه تعرض لمعارضة الانكشارية في 1561م واعتقلوه وأرسلوه للسلطان . بحجة أنه يريد الاستقلال عن السلطان . إلا أن السلطان أرسل حملة بقيادة أحمد باشا للقضاء على المتمردين وأعاد حسن بن خير الدين للمرة الثالثة لولاية الجزائر في 1562م . حيث تمكن من السيطرة على مستغانم في 1563م . ولما جاء السلطان سليم الثاني للحكم في 1566م اسند قيادة الأسطول العثماني لحسن بن خير الدين وعين بدله حسن صالح ريس في 1567م ولكنه واجه عدد من الثورات فنقل وعين بدلاً عنه غنج علي حاكماً على الجزائر في 1568م(حسين، 2014م ، ص 299-303).

ب/ تونس :

كانت هناك عدة عوامل . أملت على السلطان سليمان الاهتمام بمد النفوذ العثماني إلى تونس . منها موقع تونس الجغرافي في منتصف الساحل الشمالي لأفريقيا وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، كما تمتاز الموانئ التونسية بإمكانيات هائلة تتيح لها التحكم في مواصلات البحر المتوسط هذا بالإضافة لمجاورتها لجزيرة مالطه مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس ، اتجهت أنظار خير الدين باربروسا بعد أن وطّد نفوذ الدولة العثمانية في الجزائر إلى تونس خوفاً من أن يستخدمها الإسبان ضد الجزائر واتفق مع الدولة العثمانية على ذلك(أبوعليه ، 2014م، ص 183). حينما استدعاه السلطان سليمان القانوني في أوائل 1533م ليقف معه ضد هجمات جنوه فسافر ببعض المراكب ووصل القسطنطينية فقابله السلطان وأحسن ضيافته وأمره بالاستعداد لفتح تونس(أبوزيدون ، 2003م، ص119).

عندما وطن الإمبراطور شارل الخامس فرسان القديس يوحنا في مالطه وهدد الساحل الأفريقي.استدعى السلطان سليمان بربروسا وعينه قائداً للأسطول العثماني(Stanford,1978 P:99). استدعى السلطان سليمان خير الدين بربروسا وأحسن استقباله ومنحه لقب قبودان باشا وزير بحرية . وبعد إعداد الأسطول خرج خير الدين من الدردنيل متجهاً إلى سواحل أيطاليا الجنوبية ثم اتجه إلى صقليه ومنها إلى تونس(حسنين ، 2014م ، ص 261-262).

سار خير الدين بأسطوله من استانبول مدعوماً بعدد من السفن والجنود حيث تمكن من دخول ميناء بنزرت ثم مدينة تونس في أغسطس 1534 بلا مقاومة وبتأييد من السكان لنفورهم من سلطانهم مولاي حسن الحفصي . إلا أن السلطان حسن الحفصي استعاد تونس وحلق الوادي في 1535م من خير الدين بربروسا بمساعدة الإسبان وكانت تونس ذات أهمية كبيرة بالنسبة للإسبان دون مناطق تونس الأخرى وذلك لأنها تواجه صقليه وتبعد عنها حوالي 150 كلم وهكذا أصبح مولاي حسن تابع لإسبانيا بمعاهدة 1535م وهكذا حكم الإسبان تونس مرة أخرى لمدة 39 عاماً(اوزتونا ، 1990م ، ص 291-294).

وهكذا وصل الأمر بالأسرة الحفصية أن تحكم تونس تحت الحماية الإسبانية وترتمي في أحضان الإسبان وتمنحهم امتيازات في عام 1535م تبيح لهم السكن والتنازل لهم عن مدن عنابة وحلق الوادي وبنزرت ولم يكن السلطان أبي العباس الثاني(1535م – 1572م) من القوة بحيث يستطيع أن يسيطر على الأمور الداخلية وأن يقف في وجه الأطماع الاستعمارية فاشتد الخلاف بينه وبين وزيره أبي الطيب الخضار والذي اتصل بوالي الجزائر العلج علي وحرضه على احتلال تونس(الجمل، 2008م، ص105). ونتيجة لهذا الصراع مع إسبانيا دخل العثمانيون في حلف رسمي مع فرنسا بتوقيع اتفاقية الامتيازات الأجنبية في 1536م والتي أعفت بموجبها التجار الفرنسيين من الخضوع للقانون العثماني(Stanford .1978. P:99).

دخل السلطان سليمان في عقد تحالف رسمي مع فرنسا في 1536م وبذلك طوقت الإمبراطورية الإسبانية من قبل فرنسا والعثمانيين حتى أن الإمبراطور شارل الخامس طلب عقد هدنة مع خير الدين في 1539م(الهاشمي، 2017م، ص 657).

لما عانى شعب مدينة تونس من ظلم الإسبان والحفصيين منذ 1563م لجأ أعيانهم وممثلوهم إلى استانبول وشكوا مصائبهم وكانوا يريدون قدوم العثمانيين وطرد السلطان والحامية الإسبانية من مدينة تونس(اوزتونا ، 1990م، ص 378.). شجع كل ذلك العلج علي والي الجزائر للخروج على رأس جيش تمكن من دخول تونس بينما لجأ أبو العباس الحفصي إلى الإسبان مستنجداً واشترطوا عليه اقتسام تونس ودخلها فرفض هذا العرض وغادر إلى صقلية في 1572م وأقام بها إلى وفاته إلا أن أخاه محمد بن الحسن قبل بشروط الإسبان(الجمل، 2008م ، ص105). وبذلك تمكن الإسبان بقيادة الأمير دون حوان من هزيمة العلج علي في 1571م ودخول تونس بالتعاون مع الحفصيين في 1572م(أبوعليه ، 2008م ، ص 187).

منذ 1571م انقسم الشمال الأفريقي إلى ثلاث ولايات هي طرابلس وتونس والجزائر وكان موقف الدله السعدية من جهة وتصرف بعض الانكشارية وجهات الشرق من جهة قد اضعف الوجود العثماني في الشمال الأفريقي(حسنين ، 2014م ، ص 327). ثم أعاد القبودان باشا علج علي بناء الأسطول العثماني في 1572م . في هذا الوقت كان فيليب الثاني قد تشجع لاحتلال تونس بمساعدة السلطان الحفصي أبي العباس الثاني والذي واجهه ثورات ومقابل ذلك طلب منه التنازل عن عنابة وبنزرت وحلق الوادي . لكن أو العباس رفض إلا أن أخاه محمد بن الحسن قبل بهذه الشروط(حسنين، 2014م، ص 327). فخرج دون جون بجيش إسباني في 1573م بأسطول ضخم من صقلية من 138 سفينة عليها 25000 مقاتل واحتل تونس بعد انسحاب العثمانيين منها للقيروان(الصلابي ، ، ص 345-346).

أصدر السلطان العثماني أوامره إلى وزيره سنان باشا وأمير البحر علج علي باشا بالاستعداد لاسترجاع تونس وبينما أعد الأسطول حشد الحاكم العثماني حيدر باشا في تونس المجاهدين في القيروان . وحوصرت تونس بالأسطول والقوات البرية القادمة من الجزائر بقيادة رمضان باشا ومن طرابلس بقيادة مصطفى باشا(الهاشمي، 2017م ، ص 669). وهكذا تمكن العثمانيون من هزيمة الحفصيين والإسبان في 1574م وبذلك أصبحت تونس ولاية عثمانية واختتم الصراع العثماني – الإسباني حول تونس بتوقيع معاهدة عام 1581م والتي اعترف فيها الإسبان للعثمانيين بتونس وحلق الوادي مقابل احتلالهم لسبته ومليله والمرسى الكبير ووهران(نجم، 2015م ، ص 181).

وضحت أهمية تونس الاستراتيجية لخير الدين بربروسا فاتجه للاتفاق مع الدولة العثمانية على ضم تونس وفعلاً تم ذلك في سنة 1534م إلا أن الحسن الحفصي استطاع بمساعدة الإسبان من استعادة تونس في 1535م ولكن عانى سكان تونس من حكم الإسبان والحفصيين فأرسلوا وفداً للاستنجاد بالعثمانيين في 1563م فكلف السلطان العثماني العلج علي حاكم الجزائر ليقوم باسترجاعها بصورة نهائية للعثمانيين في 1574م .

ثانياً : مواجهة فرسان القديس يوحنا في ليبيا (طرابلس الغرب) :

أصبح السلطان العثماني منذ ضم مصر في 1517م يجمع في شخصه لقب السلطة الدنيوية والولاية الروحية لكافة المسلمين ونُظر إليه كقائد للعسكرية الإسلامية لقيادة الجهاد المقدس ضد الكفار ومن أجل السيادة على التجارة بين الشرق والغرب قامت بين الدولة العثمانية واسبانيا حروب بالغة الضراوة من أجل السيطرة على مدن افريقيا الشمالية . فثبتت الدولة العثمانية أقدامها في الجزائر منذ 1520م ، بذريعة الدفاع عن المسلمين وجه الحملات الصليبية للدول الأوربية متخذة منها قاعدة للتوسع مستقبلاً في الشمال الأفريقي (بروشين ، 2001م ، ص 25 – 26).

بعدها اتجه العثمانيون إلى طرابلس الغرب التي عرفت بأنها ميناء ذات موقع متميز لكونها تربط مراكز التجارة الصحراوية القادمة من افريقيا إلى الساحل مما جعلها تحت تهديد مستمر وصراع مستمر بين المسلمين والقوى المسيحية الأوربية (كوغلو ، 2010م ، ص 21).

كانت طرابلس دائماً تحكم بإدارة ذاتية بمجلس محلي للمدينة ، يضم رئيس المجلس وعشر شخصيات بارزة من شيوخ المدينة . وأسماها البعض جمهورية وكانت هذه هي الصفة المشتركة لمدن البحر المتوسط بين القرنين الـ 13 والـ 15 وكان من ابرز هذه الأسر هم بنو ثابت أو بنو عمار (نفسه ، ص 23 – 24) بجانب ذلك خضعت طرابلس لوصاية الدولة الحفصية منذ أواخر القرن الـ 15 ولكن استولى عليها الأسبان في عام 1510م واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط (نجم ، 2015م ، ص 178) .

بسبب الاحتلال الأسباني لطرابلس في 1510م فقدت المدينة الكثير من تجارتها والتي انتقلت إلى مصر شرقاً ، ونتيجة لممارسات الإدارة الأسبانية الإرهابية غادر كثير من الأهالي المدينة (كوغلو ، 2010م ، ص 28)

اتخذ أهالي طرابلس مدينة تاجوراء الواقعة على بعد 18 كلم شرق طرابلس مركزاً لهم ونتيجة لمعاناتهم من الحكم الأسباني أرسلوا وفداً إلى العاصمة العثمانية في 1519م وطلبوا المساندة ، سعى السلطان مراد أغا ليكون بكلر بك وارسل قوى بحرية وعسكرية معه إلى تاجوراء (نفسه ، ص 35).

عندما لم يجد الاسبان نجاحاً في كسب دعم السكان المحليين ولضمان التواجد المسيحي في شمال افريقيا وطرد الأتراك رحب الملك الأسباني شارل الخامس بالعرض المقدم من قبل المرشد الديني لفرسان القديس يوحنا بعدما طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس في سنة 1522 م فمنحهم طرابلس الغرب مقابل تعهدهم بقتال المسلمين والوقوف بجانبه ، وهكذا اتخذ فرسان القديس يوحنا طرابلس مقراً عسكرياً بينما اتخذوا جزيرة مالطه مقراً روحياً للمنظمة ، وانصرف فرسان القديس يوحنا لترسيخ وجودهم بطرابلس المدينة وترميم الأسوار والقلاع وحصلوا على وثيقة التنازل الرسمية من ملك اسبانيا في 1530م (العسبي ، 2016م ، ص 106 – 107)

ظل سكان طرابلس في صراع لمدة أربعين سنة ضد الغزاة الأسبان منذ احتلالها في 1510م ثم ضد فرسان مالطه منذ 1530م ويرى نيكولاي أن الدولة العثمانية استغلت أطماعها التوسيعية مظهرة دورها في تحرير الشعوب من الضيم الأوربي (كوغلو ، 2001م ، ص 26) واجه فرسان القديس يوحنا المقاومة الليبية التي اتخذت من مصراته وتاجوراء مراكز هجومية وعجزوا عن استرجاع طرابلس لقوة تحصينها (الجمل ، 2008م ، ص 127) ولذلك توجه وفد ليبي إلى استانبول في عام 1536م للاستنجاد بها مما أصابهم من فرسان القديس يوحنا ، فوعدهم السلطان سليمان النوني بتحرير بلادهم من المسيحيين إلى حين القضاء على مشكلاته في الجهة الشرقية وأرسل معهم مراد أغا والذي اتخذ منك تاجوراء مقراً لإمارته وشن الهجمات على الفرسان (العسبي ، 2016م ، ص 107) كان الدعم مستمراً للقوى العثمانية فحقق الأسطول العثماني نصراً كبيراً على الأسطول الصليبي في 1538م ، ثم تعززت الهيمنة العثمانية على البحر المتوسط بهزيمة شارل الخامس في 1541م (كوغلو ، 2010م ، ص 36) وتمكن مراد أغا من ضم مدينتي مصراته وترهونه في 1543م وغربان وبني الوليد في 1544م (العسبي ، 2016م ، ص 108) .

ارتبط ضم ليبيا للعثمانين بطرغد باشا[*] وذلك بعد فشل المحاولة الأولى استدعى الديوان العثماني طرغد بك مع عقدائه السبع البحريين وأعطى 90 سفينة حربية ومثلها سفن نقل ثم جاء طرغد إلى صقلية ثم جزيرة مالطه ومنها إلى طرابلس الغرب والتي مازالت تحت سيطرة فرسان مالطه منذ 1510م بينما كان كامل ليبيا بما في ذلك بنغازي وبرقه تحت سيطرة الأتراك . وكان الأتراك قد أسسوا قاعدة في تاجوراء على بعد 20 كلم عن طرابلس منعت فرسان مالطة من الهروب إلى المناطق الداخلية من البلاد وبذلك تمكن طرغد من إخراج فرسان مالطه وهزيمتهم واستولى على طرابلس في أغسطس 1551م (أوزتونا ، 1990م ، ص 311) .

واجه والي طرابلس طرغد معارضة شيوخ وقبائل البدو من المحاميد وأولاد نوير وأولاد سليمان وذلك لأنهم كانوا يقاسمون الوالي في غنائم الحروب البحرية . إلا أن الوالي استعان بالإنكشارية وأزاحهم ولذلك بدأت الانتفاضات في طرابلس الغرب الأمر الذي جعل السلطان سليمان القانوني يوجه رسالة إلى طرغد في 1559م ينصحه فيها بحسن معاملة السكان من أجل تحقيق الهدوء والوحدة في البلاد وضرورة تحصين طرابلس الغرب . بجانب ذلك وجه السلطان رسائل إلى شيوخ طرابلس الغرب بضرورة توحيد الصف في وجه الصليبيين وعزز هذه الرسائل بهدايا (بروبشين ، 2001م ، ص 30 – 31) .

ظل فرسان القديس يوحنا بعد خروجهم من ليبيا يسيطرون على جزيرة مالطه مما جعلهم مصدر عدم استقرار لطرابلس الغرب وظلوا يقومون بهجمات متكررة فكانت محاولات الدولة العثمانية لضم مالطه في الفترة 1560م – 1565م (نفسه، ص35) حيث تمكن العثمانيون هزيمة الملك شارل الخامس في معركة جربا البحرية الكبيرة في 1560م ثم قام بمحاولة بائسة لاستعادة طرابلس في 1565م ولكنه

---

[*] ولد في عام 1458م وهو أحد اميرلات خير الدين ، منحه السلطان سليمان القانوني رتبة لواء بحري واتخذ من جزيرة جربا قاعدة له ، يلماز اوزتونا ، 1990م ، ص 310 .

هزم ، ثم كانت معركة لبانتو في 1570م ، وأثبتت فتوحات العثمانيين لقبرص في 1571م وتونس 1574م أنهم هم القوى العظمى المسيطرة على البحر المتوسط (كوغلو ، 2010م ، ص36) ولعل مما ساعد العثمانيين في ذلك هو الصرعات التي فرقت دول أوربا في القرون الوسطى . أما العدو الأساسي للعثمانيين وهو إسبانيا فكان مشغولاً بحربه ضد فرنسا (برشين ، 2008م ، ص 28)

وهكذا أدى إقرار الأمن ووقف الحروب المتواصلة مع الأسبان إلى بعض الاستقرار في الوضع فانتعش اقتصاد طرابلس الغرب بتجارة العبور ما بين الساحل وأفريقيا عبر الصحراء الكبرى (نفسه ، ص 42)

وبذلك أسهمت الدولة العثمانية بإستجابتها لاستنجادات أهاي طرابلس في طرد الخطر الصليبي " فرسان القديس يوحنا " من ليبيا بل وامتد العثمانيون للداخل بضم جربا في 1560م وفزان في 1577م وبرقه في القرن الـ 17م (نجم ، 2015م ، ص 179) وهكذا نجحت الدولة العثمانية في مواجهة التوسع الصليبي في ليبيا والمتمثل في فرسان القديس يوحنا .

ثالثاً : مواجهة التوسع الصليبي البرتغالي في شرق أفريقيا :

كان المحيط الهندي والبحار التابعة له في القرن الـ16م بحراً إسلامياً إلا أن البرتغال دخلت في أوائل القرن الـ 16م كدولة بحرية وسيطرت على المحيط الهندي وجلبت التجارة الآسيوية إلى أوربا . ولعدم وجود أي دولة إسلامية تمتلك قوة بحرية كبيرة عدا الدولة العثمانية فقد تحّيز المسلمون لها إذ أن البرتغاليون منعوا المسلمين من الخروج إلى البحار الهندية(اوزتونا، 1990م، ص 323). على أن البرتغاليين لم يقضوا نهائياً على الوجود الإسلامي وأنشأوا فقط ثلاث مستعمرات رئيسية هي : كلوة وموزمبيق وسوفا لا ومستعمرات فرعية في زنجبار وبمبا ، أما سائر المدن الساحلية فقد احتفظت بحكوماتها ونظمها المحلية مقابل أداء الجزية وكانت المدن الشمالية تتمتع بحرية التجارة أكثر مما كانت تتمتع به المدن الجنوبية(حسن ، د.ت ، ص 179).

على أنه قد ظهر عامل لم يكن في الحسبان فقد ظهر العثمانيون في البحر الأحمر والخليج العربي . وقوبل مندوب السلطان العثماني بحماس شديد في مقديشو وممبسا وبراوه وكسمايو ولأمو ودخلت في طاعة السلطان واندلعت الثورة في أكثر المدن التي استنجد أهلها بالسلطان العثماني ولكن الأسطول البرتغالي سرعان ما قضى على الأسطول العثماني وأرغم هذه المدن على الإذعان لطاعتهم من جديد(نفسه ، ص 181).

استعان حكام الحبشة في حربهم مع الممالك الإسلامية بالقوى الخارجية من وراء البحار خاصة البرتغاليين الذين قاموا بارتكاب الكثير من الجرائم فقد قام القائد البرتغالي لوبي سواريز باحتلال ميناء زيلع عاصمة سلطنة عدِل وأحرق البلدة ودمرها سنة 1517م ثم جاء القائد سالدينها Saldeneha فهاجم بربره وعبث بالبلدة وأباحها(نادر ،د.ت ، ص 104). في الجانب الآخر ظهرت قوة العثمانيين الإسلامية بعد أن سيطروا على مصر في 1517م وبدأوا يسيطرون على البحر الأحمر وكان ظهور العثمانيين في هذا الوقت بالذات قد أنقذ مسلمي شرق أفريقيا من خطر البرتغاليين الطامعين بالتحالف مع الأحباش في ضرب مصر من الظهر ومهاجمة البلاد المقدسة في الحجاز لذا يمكن القول أن القرن الـ16م قد شهد بعداً دولياً جديداً بظهور البرتغاليين والعثمانيين(الغتيمي ، 1998م ، ص 125).

امتازت الحبشة بموقع مميز على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي الأمر الذي مكنها من السيطرة على تجارة الشرق . اتصل البرتغاليون مع دولة الحبشة المسيحية بواسطة المبشرين . إذ وصلت أول سفارة رسمية للبرتغال للحبشة في عام 1520م وبها بدأت العلاقات الرسمية بين الأحباش والبرتغاليين . كانت الدولة العثمانية على علم بكل ما يدور في سواحل الطرف المقابل بواسطة ولاتها في اليمن وتراقب وترصد تصرفات وتحركات البرتغاليين . كما كانت تتابع عن كثب أوضاع المسلمين هناك ، بينما كان البرتغاليون يرون في مملكة الحبشة مدافعاً ومحارباً في سبيل مصالحهم الخاصة كما أن التقارب في الدين والعلاقات الوطيدة بينهما كانت تمثل تحالفاً ضد المسلمين وبالتالي ضد العثمانيين(سعداوي ، 2007م ، ص 13). وهكذا تمكنت البرتغال من السيطرة على تجارة المحيط الهندي بالسيطرة على شرق أفريقيا التي لم تكن فيها دول منظمة عسكرياً لتقف أم البرتغال لذلك حاولت الدولة العثمانية الدفاع عنها بقدر ما تستطيع ويمكن تلخيص هذه المحاولات فيما يلي :-

أ/ مساعدة الإمام أحمد بن إبراهيم " قرانج " حاكم مملكة هرر الإسلامية (1506م- 1543م) :

كانت مملكة هرر أهم دول الحبشة الإسلامية وحاكمها هو أحمد بن إبراهيم (1506م -1543م) الملقب " بقرانج " الأشول وتمتد دولته من زيلع حتى جبال الحبشة ومركزها هرر(نفسه، ص 13). التقت رغبة الدولة العثمانية مع أحمد بن إبراهيم إذ أنها كانت تهدف لدفع مملكة الحبشة الارتوذكسية اليعقوبية وإبعادها عن البحار وقطع علاقاتها مع البرتغاليين الذين تتعاون معهم(اوزتونا ، 1990م ، ص 331). بينما كان أحمد بن إبراهيم كان معارضاً لدفع الجزية لملك الحبشة لبنا ونقل (1508م – 1540م) فثار ضد سياسة البرتغاليين وحلفاءهم الأحباش(نادر ، د.ت ، ص104).

أدت سيطرة العثمانيين لبعض الموانئ الآسيوية والأفريقية للبحر الأحمر لتطلع القوى الإسلامية في الحبشة إلى الأتراك العثمانيين والذين بدورهم كانوا يرغبون في السيطرة على الحبشة حتى يؤكدوا سيطرتهم على الجزء الجنوبي الغربي من المحيط الهندي . وتحقيقاً لهذا الهدف اتصل الأتراك العثمانيون بمسلمي الحبشة الذين وحدت بينهم القضية الدينية ووجدوا في الإمام أحمد بن إبراهيم

القوة المحركة التي يستطيعون من ورائها تحقيق أهدافهم فأمدوه بالسلاح والرجال والذخيرة وبذلك نجح الإمام بفضل النجدات التركية التي كانت تصله من القواعد التركية في اليمن من هزيمة الإمبراطور لينا دنقل ، وعندما ضاعفت مملكة الحبشة من عدوانها على المسلمين بتحريض من البرتغاليين في سنة 1547م أعلن الإمام أحمد الجهاد على الحبشة واستطاع أن يحقق نجاحاً كبيراً ويوسع دولته حتى مصوع والساحل ، ولذلك اضطر حاكم الحبشة لينا دنقل " ديفيد الثاني " طلب العون من البرتغال(سعداوي ، 2007م،ص13). قدم البرتغاليون إلى ديفيد الثاني مساعدات كبيرة ونجدو الحبشة لأنها أحد المراكز الحساسة لنزاعها الاستراتيجي مع العثمانيين(اوزتونا ، 1990م ، ص 332).

استنجد حاكم هرر أحمد بن إبراهيم بالأتراك الذين كانوا قد سيطروا على اليمن ليمدوه بالسلاح والعتاد والرجال وتم له ذلك فاستطاع الاستيلاء على شواء في 1528م .

مما يظهر بوضوح أن الدولة العثمانية لم يكن يشغلها فتح اليمن و إنما كان يشغلها تسلط الأساطيل البرتغالية على البحر الأحمر إنما عينت في 1530م سيدي رئيس والياً لليمن وأحمد بك بن سلمان رئيساً معاوناً له . " أي عين للمنطقة شخصين بحريين "(نفسه ، ص 325) ونتيجة للعون العسكري العثماني الذي قدمه مصطفى باشا بابكر بي اليمن بإنزال مراكبه على بهلول ومعه العتاد والتجهيزات الحربية بينما قام أحمد بن إبراهيم بتحيرك قواته من الداخل واستطاع السيطرة في سنة 1530م على إيالات فتغار وايفات(سعداوي ، 2007م،ص13). وبهزيمة ملك الحبشة سيطر الإمام أحمد بن إبراهيم على دوارو وشوا في 1531م ثم أمهره و لاستانه في 1533م ثم بالي وهديه وغوارج وسيدامو في الجنوب ثم اتجه شمالاً واحتل إقليم تجراي في 1534م(نادر ، د.ت، ص 105) . مكنت هذه الانتصارات أحمد بن إبراهيم في 1535 م من وضع أراضي التجراي تحت حكمه وسيطر على جنوب ووسط الحبشة وغزا إقليم أمهره للمرة الأولى وتقدم حتى الساحل(الغتيمي ، 1998م ، ص 125) . وبسبب هذا عرف الإمام أحمد بالمجاهد وكان النجاح الفائق الذي حققه الإمام أحمد بمساعدة الدولة العثمانية قد أدخل السرور على قلب السلطان العثماني سليمان القانوني ويدل على ذلك ما جاء في خطابه إليه تكريماً بقوله " السلطان أحمد الحاكم بولاية الحبش "(سعداوي، 2007م، ص14).

بعد هذه الهزائم التي تعرض لها ملك الحبشة استشار البطارقة والحاشية واتصل بالبرتغاليين واستنجد بهم في عام 1535م حيث أرسل إلى ملك البرتغال يلتمس العون والمساعدة العسكرية والمساندة الحربية(الغتيمي ، 1998م ، ص126).

تسلم ملك الحبشة الجديد الملك قلاديوس GLAUDIUES (1540م – 1552م) وفي عام 1541م استلم العتاد المكون من مدافع وبنادق المرسلة من البرتغال وعلى إثر ذلك انهزم أحمد قرانج وانسحب من الأراضي الكبيرة التي سيطر عليها إلا أن والي اليمن محمد باشا زاده مصطفى ارسل إلى أحمد قرانج 10 مدافع و900 جندي عثماني حملة بنادق تمكن بها أحمد قرانج كسر الجيش الحبشي - المسيحي الذي يضم 450 جندي برتغالي بقيادة دون كريستوفر في معركة أفلا AFLA حيث أسر القائد البرتغالي (*) وأرسل رأسه إلى مصطفى باشا في زبيد . أدت هذه الحرب الميدانية إلى تقوية النفوذ العثماني في الحبشة بشكل واسع(اوزتونا ، 1990م ، ص 332) .

دفعت هذه الانتصارات بالإمبراطور قلاديوس لإرسال وفد إلى لشبونة لطلب النجدة العسكرية فاستجاب ملك البرتغال ووجه تعليمات إلى نلئبه في الهند بإرسال أسطول برتغالي لمقاتلة المسلمين ومساندة ملك الحبشة . حينها لم يكن مسلمي الحبشة على استعداد وتقدمت القوات البرتغالية في فبراير 1543م حيث هزمت جيوش الإمام وجرح جراً مميتاً وكانت تلك المعركة عند ويتا داجا قرب بحيرة تانا . وهكذا قضي على ثورة الإمام أحمد بمساندة البرتغال(الغتيمي ، 1998م ، ص 28). واستطاع ملك الحبشة من استراد الأراضي التي فقدتها مملكة الحبشة مملكة الحبشة وإعادتها لحدودها القديمة .

وهكذا انضم الأتراك إلى الإمارة المسلمة بقيادة أحمد بن إبراهيم وانضم البرتغاليون إلى الأحباش وقد استطاع المجاهد أحمد بن إبراهيم بمساعدة الأتراك أن يحقق انتصارات كبيرة خلال 15 عام من 1528م إلى 1543م ولقد اندفع الأتراك بشدة في مساعدته حيث أدركوا مدى البعد الحقيقي لهذا الخطر الصليبي المتحالف مع الأحباش فما كان من الأتراك إلا أن سيطروا على سواكن وزيلع واتصلوا بالمسلمين في مصوع(السعداوي ، 2007م،ص 14) .

ب / دعم ثورة مالندي والاستجابة لاستنجاد ممبسا :

لم تكن الدولة العثمانية تهمل شأن الدفاع عن الديار الإسلامية لاسيما تلك المناطق القريبة من الأراضي المقدسة . ومما يدل على إحساس العثمانيين بالخطر الصليبي البرتغالي في مناطق شرق أفريقيا هو بسط نفوذهم على عدن منذ 1538م . ليتخذوها قاعدة لمهاجمة البرتغاليين في المحيط الهندي ولنهم لم يلعبوا دوراً فعالاً في دفع البرتغاليين عن شرق أفريقيا إلا في أواخر القرن الـ 16م(الغتيمي ، 1998م ، ص 181) . وذلك عندما جاء والي عدن اللواء بحري علي بك بأسطوله إلى كينيا ورسا في ميناء مالندي Malidi في 1584م حيث استقبله المحليون خاصة الأقلية العرب و السواحليون والهجناء العرب والزنوج بحفاوة بالغة . أسس علي بك منهم وحدة عسكرية واحتل جزيرة لامو في الشمال وميناء ممبسا في الجنوب والساحل الممتد بينهما ، والحقهما بالحكم العثماني وكانت هذه المناطق حتى موزمبيق في الجنوب قد

(*) ابن المكتشف فاسكوداجان.

اعترفت بالسلطان العثماني(اوزتونا ، 1990م ، ص 237). وهكذا انبعثت روح الأمل بين السكان المسلمين وأعلن أمراء المدن من مقديشو حتى ممبسا أنهم يدينون بالولاء للسلطان العثماني وكانت الظروف قد ساعدت العثمانيين إذ أن البرتغال أحتلت بواسطة أسبانيا في 1580م(الغتيمي ، 1998م ، ص 181).

وفي عام 1589 م جاء علي بك ثانية مع أربع سفن حربية وسفن نقل كبيرة ودخل ممبسا ، فأرسل نائب الملك البرتغالي في جوا وهو أكبر موظف برتغالي في المحيط الهندي وأخاه دون ثوم بأسطول للقضاء على علي بك حيث أسر علي بك وأرسل إلى لشبونة وفر جنوده إلى مناطق تنجانيقا وهكذا فشلت عملية إخراج البرتغاليين من سواحل تنجانيقا وموزمبيق بينما ظل الشيرازيين مسيطرين على بعض المناطق الشمالية هنا وهناك واستمروا في ولائهم للعثمانيين(اوزتونا ، 1990م ، ص 238).

وهكذا قضي على آمال مسلمي شرق أفريقيا للتخلص من الحكم البرتغالي مرة ثانية فعادت جميع الموانئ للخضوع باستثناء مقديشو التي حافظت على استقلالها . وقد يكون ذلك نظراً لقربها من عدن حيث الأتراك العثمانيين وبعدها عن موزمبيق مقر الحكم البرتغالي ونتيجة لهذه الثورة المتكررة وتدخل الأتراك في هذه الأنحاء قرر البرتغاليون بناء قلعة ممبسا التي عرفت باسم قلعة يسوع المسيح في 1592م واستغرق بناءها عامين كما كوفئ سلطان مالندي الشيخ حسن بن أحمد على ولاءه لهم بمنحه إمارة ممبسا إضافة إلى ولايته في العام 1592م . إلا أن استنجادات المسلمين المتكررة بالأتراك العثمانيين جعلت البرتغاليين يعمموا الإدارة المباشرة ويديروا مؤامرة لاغتيال حليفهم حسن بن أحمد حاكم مالندي وأخذو ابنه الصغير يوسف وهو في السابعة من عمره إلى جوا بالهند وعمدوه نصرانياً وعملوا على تنشئته تنشأة برتغالية وعادوا به حاكماً على مالندي(الغتيمي ، 1998م ، ص 182-183).

يتضح من ذلك مدى اهتمام العثمانيين بساحل شرق أفريقيا عندما أصبح مهدداً بالخطر البرتغالي ولذلك استجابت الدولة العثمانية لاستنجادات المسلمين ممثلة في دعم حاكم هرر أحمد بن إبراهيم في ثورته ضد البرتغاليين (1528م – 1523م) ثم دعموا حاكم مالندي في ثورته ضد البرتغاليين (1584م – 1592م) إلا أن المساندة المحلية التي وجدها البرتغاليون من مملكة الحبشة المسيحية وبعض حكام المدن الإسلامية مكنتهم من القضاء على هذه الثورات بينما انحسر الوجود العثماني شمالاً في سواكن ومصوع .

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة وضح ما يلي :

أدى سقوط الأندلس في 1492م وحركة الكشف الجغرافي لظهور الأخطار الصليبية على مسلمي شمال وشرق أفريقيا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، تمثل هذا الخطر الصليبي في وجود الإسبان وفرسان القديس يوحنا في شمال أفريقيا والبرتغاليين في شرق أفريقيا .

كانت السلطة المحلية في شمال وشرق أفريقيا ممثلة في الدويلات والإمارات والمدن الإسلامية في حالة ضعف بسبب الانقسام المذهبي والعشائري والأسري وغير قادرة على صد هذه الأخطار .

قاد الجهاد الإسلامي ضد الخطر الإسباني في الجزائر آل بربروسا " أروج و خير الدين " وكان ذلك بقبول أهل الجزائر بهم بالإضافة للاستعانة بالدولة العثمانية والتي دعمت خير الدين لتحرير الجزائر من الإسبان وفعلاً نجح في ذلك في العام 1519م وأصبح والياً نيابة عنها .

استمر التعاون بين خير الدين بربروسا والعثمانيين ضد الإسبان وحلفاءهم الحفصيين حتى تم ضم تونس في سنة 1534م للعثمانيين إلا أن الإسبان والحفصيين استعادوا حكمها في 1535م الأمر الذي أدى للجوء أعيان تونس للدولة العثمانية للاستنجاد بها في 1563م فدعم السلطان العثماني أمير الجزائر العلج علي بقوات برية وبحرية مكنته من ضم تونس بصورة نهائية للدولة العثمانية في 1574م .

لما عجزت المقاومة الليبية من تحرير بلادها من حكم فرسان القديس يوحنا ، استنجدت بالعثمانيين في 1536م فارسلوا حملة بحرية تمكنت من هزيمة فرسان القديس يوحنا في 1551م وآلت ليبيا لحكم العثمانيين .

تعرض مسلمو شرق أفريقيا للخطر الصليبي البرتغالي في أوائل القرن الـ 16م عندما وصلوا لسواحل شرق أفريقيا وسيطروا على التجارة وفرضوا الجزية على المدن والمشيخات الإسلامية .

استعان مسلمو شرق أفريقيا بالدولة العثمانية واستجابت الدولة العثمانية عن طريق ولاتها في اليمن وجده ودعمت أحمد بن إبراهيم في ثورته ضد البرتغاليين " 1528م – 1543م " كما دعمت أمراء المدن الشمالية عندما أعلنوا ولائهم لهم . وساندوا حاكم مالندي في ثورته ضد البرتغاليين . إلا أن هذا الدعم لم يقضي على الوجود البرتغالي في المنطقة ولكنه خفف من وطئته .

مثلما كان هناك قبول وتأييد محلي للاستنجاد بالدولة العثمانية كان هناك أيضاً مساندة محلية للأخطار الصليبية مثل مساندة الحفصيين للإسبان وفرسان القديس يوحنا في شمال أفريقيا وتحالف مملكة الحبشة المسيحية وحاكم مالندي مع البرتغاليين في شرق أفريقيا .

نجحت الدولة العثمانية في مواجهة التوسع الصليبي الإسباني وفرسان القديس يوحنا من شمال أفريقيا " الجزائر ، ليبيا ، تونس " والتي أصبحت ولايات تابعة للدولة العثمانية ، بينما فشلت مجهودات الدولة العثمانية في مواجهة التوسع البرتغالي في شرق أفريقيا، ولكنها حدت من خطورتهم.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً :- المراجع العربية

أبو زيدون وديع ، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن ، عمان ، ط 1 ، 2003م

أبو عليه عبد الفتاح حسن ، الدولة العثمانية والعالم العربي الكبير ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1429هـ – 2008م.

اوزتونا يلماز ، تاريخ الدولة العثمانية، مجلد 1، ترجمة محمود سليمان ومراجعة محمود الأنصاري ، مؤسسة الفيصل للتمويل ، تركيا ، استانبول ، 1990م.

الجمل شوقي ، تاريخ سودان وادي النيل ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 2008م.

الشناوي عبد العزيز محمد ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج 2 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، (د. ت).

الصلابي محمد علي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط.

العبسى أحمد عبد العزيز ، تاريخ العالم العربي الحديث و المعاصر ، مكتبة بستان المعرفة ، الإسكندرية ، 2016م .

الغنيمي عبد الفتاح مقلد ، الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا ، عالم الكتب ، ط 1 ، 1998م

الهاشمي عايد توفيق ، دولة الغدر الخلافة العثمانية ، 1299م – 1924م ، د. ت ، ط 2 ، 2017م.

الهندي محمود إحسان ، الحوليات الجزائرية ، تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة فالاستقلال ، العربي للإعلان والنشر والطباعة والتوزيع ، (د.ت) .

بروشين ، نيكولاي إيلتش، تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين ، ترجمة عماد حاتم ، دار الكتب الجديدة المتحدة ، بيروت: لبنان، ط2 ، 2001م.

حسن حسن إبراهيم ، تاريخ انتشار الإسلام في أفريقيا، (د.ن) (د.ت).

حسنين إبراهيم ، سلاطين الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التعليم الجامعي ، الإسكندرية ، ط 2014 م.

سعداوي خالد ، ترجمة السودان في العهد العثماني من خلال الأرشيف العثماني ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، استانبول ، 2007م.

طوباش عثمان نوري ، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة ، در الأرقم ، استانبول ، 2016م.

كوغلو أرخان، العلاقات التركية الليبية خلال 500 سنة ترجمة عبدالقادر مصطفى المحيشي ، دار الكتب الوطنية ليبيا: بنغازي ، طرابلس ، 2010م.

مصطفى أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق ، القاهرة ، ط 2 ، 1993م.

نجم زين العابدين شمس الدين ، الدولة العثمانية ، دار المسرة للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، ط 2 ، 1435هـ – 2015م .

نادر محمد سعيد ، المروية والإسلام بالقرن الأفريقي ، (د. ن) ، (د. ت).

ثانياً :- المراجع الإنجليزية

Stanford .j. Shaw , The History of the ottoman Empire and Modern Turkey vol II second publisher Cambridge u.p. London 1978,